الفصل الثاني

الثَّوْرَةُ على الثَّوْرَةِ الشِّيُوعِيَّة

يَبِيْـعُ دُكَّانُ عائلة لي زهانْوي Li Zhanwei للتحف في الجانب الخامل من سوق دونجتاي Dongtai في شـنغهاي كلَّ شيءٍ. فرفوف البضائع التي ترتفع إلى السـقف قد تكون رفوفاً للأدوات أو مخزناً لقطع غيار السـيارات، غير أنها تُملأ عشـوائياً بنُتَف من ماضي الصين. وتجد قرب الباب خطاف صغير عُلِّقَت عليه إسوارات من اليَشَب (نوع من الأحجار الكريمة). وتجد خيلاً طائرة صُنِعَت من البرونز، بعضها بحجم الجوز الأمريكي pecan وأخرى بحجم كلاب جولدِن رِتريفـر golden retriever تمـلأ المكان. وتجد قوارير النّشـوق الزجاجية رُسِمت عليها صُوَر شخصيات شفافة تَتَجَمَّعْن حَوْل بوذا في عشرات التَجَليات.

والشمس هي مصد النور الأول لدكان لي. وتجد تحت ضوء مصباح فلورسنت في مِشْـكاة في المؤخرة أطْباقاً خزفية يعلوها سـخام مئة سنة خُبِّئَت فيها نقودٌ متآكلـة وقلادات لِجَلْب الحظ وتَعِد بألوان السـعادة. ويقف تمثالان على الأرض من سلالة تانج Tang عمر الواحد منهما ألف وثلاثمائة سنة، فيستطيع مساوم طويل الأناة أن يشتري الواحد منهما بخمسة دولارات. وهناك رفوف من قَصَبات الخـط والكتابة صُنِعَت من الخيزران قيل إن لها هُدب من شـعر الذئب وأخرى بشـعر الأرنب الأبيض. ويضم دكان لي Li مجموعة منوعة من الأقفال الصينية القديمة، التي تُعْجب المهندسين الزائرين من الولايات المتحدة وألمانيا. وتجد على الرفوف العليا، بعيداً عن متناول المتفرجين غير المبالين، مجموعة من السـاعات المذهَّبَـة من أوروبا القديمة. ويعلوها تماثيل غانيات من الخزف الصيني يرتدين ثيابـاً، وينفخن في أبواق، أو شـخصية بريطانية كالغول. ومجموعات ماه جونج

mah-jong عاجية، بعضها كبير يليق بالعمالقة وبعضها الآخر صغير يناسب براغيث السيرك، وقد رُتِّبَت في أهرامات أنيقة.

ويحتفظ دكان لي بكمية كبيرة من أدوات القتل – فؤوس، ونَنْتْشَكو nunchaku، وخناجر، وحِراب، ومجارف حادة، ونصول قاطعة – كافية لتملأ غرفة معدات أحد استوديوهات هونج كونج. وألوف من قِطَع، مُعْظَمُها مُقَلَّدة صنعت في مصانع الصين. أما الذين يشترون من دونجتاي بانتظام، فإن مخازن لي عندهم من أشرف باعة ذلك الشارع. فهم يلتزمون بشعار حَذِّر المُشتري، ويعترفون بالخداع عندما يُسألون، وإنما عندما يُسألون فقط.

لو لم تكن شنغهاي والصين يتغيران هكذا سِراعاً لما باعَ السيد لي وزوجُه شيئاً في دونجتاي. فقِصَّتُهُما تختصر القوى الهائلة التي تعمل في الصين، فتُبعِد الناسَ عن مجتمعاتهم الزراعية الموروثة وتُدخِلُهم خِضَمَّ التجارة العالمية.

وصل الزوجان قبل ست سنوات من قرية زراعية في هِنان Henan لايَمْلِكانِ قِطْميراً، وهي ليست إلا مدينة من مُدُن مُقاطعات الصين الكثيرة التي يزيد عدد سكانها على 95 مليون نسمة. ومازال الزوجان يحملان سمات أصلهما الريفي، مثل كثير من مستوطني المحافظات. فالسيد لي نحيل تملؤه الحيوية، لايكاد يحمل من سمات أهل المدن شيئاً. فشَعره المقصوص فوق جبينه كأنما قُصّ في البيت. أما سِروالُه المصنوع من البوليستر، وقميصه ذو الأكمام له طوق حول المعصم قد لا يَعْدم شيئاً من الأناقة لولا أن كثرة الغسيل التي جعلتهما لا يمُتّان إلى الأناقة بِصِلَة. وترتدي السيدة لي سِرْوالاً أكثر أناقة وقميصاً رشيقاً، وقد سَرَّحَت شعرها على شكل ذيل الفرس. ولوجهها الوردي خدّان عاليان عضلاتهما بارِزَة؛ وتجوب الدكان بعينيها البراقتين. وقد بلغ الزوجان لي مَطْلَعَ كهولتهما، وتراهما يبتسمان بِرِقَّة عندما يُسْألان عن طريقهما الذي سَلكاه إلى شنغهاي، فيرويان قصتهما بتفصيل وعاطفة من ينتظر أن يُسْأل – فتراهما عندما دخل أسترالي الدكّانَ ليُحَوِّل نقوداً ويشتري بعض السيوف الحربية، وهي سِلْعَةٌ رائجة

في دونجتاي، استرسلت السيدة لي في كلامها، فقالت، بواسطة تُرجُمان: «لن نكون أبداً مقبولين كُلَّ القَبولَ مثل أهل شنغهاي، غير أن المدينة أَثَّرَت فينا أثراً كبيراً». إن هِنان Henan، التي تبعد محافظتين في العمق عن شنغهاي، تُقدم حوافزاً كثيرة لمن يغادرها من أهلها. ويقدم مصرف التنمية الآسيوي The Asian Development Bank تقييماً قاتماً للمنطقة، فيقول إنها مُبْتَلاة «بِكثافةٍ سُكّانِيَّة شَديدةٍ وبُقْعَةٍ زِراعِيَّةٍ مَحْدودَة بسبب تضاريسها الجبلية، ومناخها القاسي، وندرة مياهها». وكان الجراد والفيضان من آخر المِحَن التي شَهِدَتها الأُسْرَة عندما رَحَلَت.

وصلت عائلة لي إلى شنغهاي في ذروة موجة الهجرة إلى المدينة. وبلغ عدد المهاجرين إلى هذه المدينة سنة 2003م أربعة ملايين وافِداً. ومما يثير الدهشة أن 97 بالمئة من الذين هاجروا إلى المدينة وجدوا من فورهم عملاً فيها. وقد اجْتَنَبَت أُسْرَةُ لي الطرقَ المألوفة في أعمال البناء والمطاعم. فَبَسَط الزوجان ملاءة على قارعة الطريق فور وصولهما، وباعا قِطعاً بسيطة استطاعا جمعها من حيث قَدِما. وتوقِفُ الشَرِطة كثيراً من الباعة المهاجرين، وقد أمضت أُسْرَةُ لي سنتين تُطارَد من مكان إلى آخر. ثم فازا بفرصة بيع بضاعتهما في الدور الأعلى من سوق السِّلَع المُسْتَعْمَلَة في البرج الرئيس على أطراف شنغهاي القديمة، وهي منطقة تجارية مزدحمة نَمَت حول مَشْرَب شاي وحديقة عمرها أربعمئة سنة. وتجد اليوم مبانٍ جديدة على طراز المعابد والقصور الصينية القديمة تؤوي دكاكين للسياح، ومطاعم، وباعة للتحف القديمة.

ويؤجرالسوق في أعلى البرج للباعة من جميع أرجاء الصين، جميعهم مهاجرون يحاولون امتطاء أول حلم مديني. والقاعة جرداء لاشيء فيها؛ يجلس فيها الباعة المتجولون على ملاءات أو قطع من ورق مقوى قديمة يحنون فوقها قاماتهم، أمام طاولات منخفضة مُلِئَت بقطع مهمة، بعضها حقيقي ومعظمها غير حقيقي (مقلَّد). وأثبتت أُسْرَةُ لي قدرتَها في السوق واكتسبت زبائن منتظمين

بين فئات اجتماعية تَتَرَفّع وتبحث عن مواد تزين بها الشقق الجديدة التي تنتشر في أرجاء المدينة. غير أن الزوجين لم يستطيعا أن يبيعا أكثر من ذلك في القاعة المزدحمة. كانت عائلة لي تدرك أنها لو كان لها دكان لاستطاعت أن تخزن مواداً أكثر وتُغري الزبائن بإنفاق وقت أطوَلَ في شرائها فتَتَمَكَّنُ أسرتهم من حصة أكثر ثباتاً في شنغهاي الصاعدة.

غير أن أسرة لي اضطرت، من أجل توسيع تِجارتها، إلى دخول شبكة الإقراض الكبيرة المحلية غير القانونية التي تُمَوِّل مُعظم اقتصاد الصين، ويعود أصلها إلى تآزر مجتمع المهاجرين. فكل ما يتعلق بسوق التمويل غير الرسمي يتم بالكلام، والمصافحة، وأحياناً بعقود مكتوبة خارج أُطُرٍ قانونية. وتضم مخازن بيع الكتب الكبيرة في الصين كتباً تجارية في جميع فروع التجارة غير أنها لا تتطرق إلى الإقراض غير الرسمي. ولا يعلن عن ذلك أبداً إلا عندما تداهم الحكومة الصينية المرابين بين وقت وآخر. وإن هذه القناة الخفية من رأس المال تتعهد بتقديم العون المالي لملايين المتعهدين الريفيين ممن لهم أعمال تجارية في المدينة. وقد خلصت دراسة تَمَّت برعاية أكاديمية شنغهاي للعلوم الاجتماعية Shanghai Academy of Social Sciences، وهي مركز يتمتع بسمعة طيبة يجمع بين مركز للأبحاث وجامعة، وقد كانت نسبة كبيرة جداً من مقاولي شنغهاي وأصحاب الأعمال المستقلة فيها من الدخلاء الذين انتقلوا إليها من مكان آخر.

وإن حال أُسْرَة لي، التي صارت تملك دكاناً في أحد مدن الصين الكبرى، حيث تستطيع الوصول إلى المعلومات، والسِّلَع، والأسواق، والأجانب، والمنفقين، ووسطاء أذواق المدينة المتبدلة، يساعد في تفسير إثارة شنغهاي الطاغية. غير أنَّ أهمية صعود تلك الأُسْرَة هي أنها لم تعتقل لأنها فعلت ما فعلت. لقد كان المهاجرون في الصين منذ زمن غير بعيد يواجهون وطأة سلطة الدولة المصممة على إبقائهم في مواطنهم. غير أن التحرر الاقتصادي جَرَّأ الناسَ على الانتقال،

فصاروا يتجمعون واحداً بعد آخر، حتى حشوداً كبيرة جداً وصارت البلاد تعيش الآن أكبر عملية هجرة في تاريخ البشر.

مليارات كثيرةٌ مِنَ العُقول

إذا أردت اليوم أن تواجه الصين عليك أن تواجه شعبها – مهما كان عددهم. ويأتي التناقض بين الإحصاء الصيني الرسمي للسكان الذي يُقَدّر عددهم بـ 1.3بليون نسمة والتقدير الغربي الذي يجد عددهم 1.5 بليوناً في تحليل لوكالات الاستخبارات لاستهلاك الصين من الحبوب، الذي يتجاوز كثيراً حاجة 1.3 بليون نسمة. فالأشخاص الذين يفترض أنهم أُسقطوا من العدد الرسمي الذي أعلنته الصين يختبئون في الزحام. وثمة أطفال استثنوا من الإحصاء، لو عَرَفَت السُلطات بوجودهم لكانت أسباب حياة أبويهم في خطر. وينقص من الإحصاء فلاحو الصين الذين تحولوا إلى عمال مهاجرين يجوبون البلاد دون إذن رسمي ضروري لذلك، وليس لهم عنوان ثابت. وربما كانوا عمال بناء يعيشون في مواقع عملهم، ويتنقلون حسب تقدم العمل، ولا يملكون سوى جعبة ثياب، وينتقلون إلى مكان آخر عند إنجاز عَمَلِهِم. وربما كان بين من لم يشملهم الإحصاء قرويو المناطق الخلفية الذين يلوذون بالفرار من مقرضي الأموال في موطنهم؛ ففي الصين أفواج كاملة من المدينين الجوّالين الذين لا يستطيعون العودة إلى بيوتهم ثانية. وليس ثمة شك في أن موظفي الإحصاء الرسميين لا يجدونهم عندما يبحثون عنهم من منزل إلى منزل آخر.

وربما كان حجم الصين الحقيقي هو الأدق عن البلاد، غير أن المقياس الإنساني لهذه الأعداد يصعب وضع اليد عليه. تذكروا أن تقديرات عدد الصينيين الوافدين من الريف الصيني إلى المدن في السنوات الأخيرة يتراوح بين 90 مليون و300 مليون. وإن الرقمين كبيران جداً وتَصْعُبُ مَعْرِفَتُه. وهناك ناس يتراوح عَدَدُهُم بين 100 مليون و 200 مليون سينضمون إلى الوافدين الحاليين

خلال العقد القادم. وإن هؤلاء العمال أنفسهم يشكلون تَجَمُّع عَمَلٍ هائل. وإليك مقارنة أخرى، فإن تعداد القوى العاملة في الاتحاد الأوروبي يصل إلى 223 مليوناً. ويبلغ في اليابان 63 مليوناً. ويزيد عدد المقيمين في بعض مراكز المدن في الصين، مثل شنغهاي، مليوناً في السنة. ويصل في مدن أخرى أُحْدثت مؤخراً إلى حجم شيكاغو أو لوس أَنجلِس في بضع سنين.

كان إطعام كلِّ سكان الصين في سالِف الأيام صَعباً، وكذلك توظيفهم، ودَرْءُ انغماسِهم في الفوضى، ويعدون أكبر تهديد لرفاهيتها. فالرحالة في الصين الذين يبلغ عددهم 100 مليون أو 200 أو 300 مليون من البَشَر هم الذين يجب أن يكونوا قانونياً في مكان واحد غير أنهم ليسوا كذلك، وينبغي أن يكون لهم عمل معين، غير أن لهم في الواقع عمل آخر، إنهم أُمَّةٌ مُتَجَوِّلَة تُشَكل مجموعة هي أكثر تمزقاً في الصين، والمجموعة الأصعب انضباطاً. وهم، مثل السيد لي وزوجه، المجموعة التي تعطي حداثةَ الصين جوعَها.

مَكائد شُيوعِيَّة

وإذ تقرعُ الصينُ أبوابَ القرنِ الحادي والعشرين ويتحرك سكانها بحثاً عن الحرية ويكتسبون سلطة، فإن أكبر مفارقاتها هو أن كل هذا التغيير قد حدث تحت أنظار الحزب الشيوعي الصيني، الذي كان مرةً العدوَّ الراديكالي الأَشَد والمُخيف للمشروعات الخاصة التي شهدها العالم. كانت أهم إصلاحات الحزب داخلية المصدر، ولم تَرِد إليها من الخارج من حكومات أجنبية أو وكالات دولية. وقد أتت نتيجة تخطيط حتماً، غير أن الصين تدين بنجاحها لحكومة اعترفت مُرْغَمَةً أنها لن تستطيع أن تَقِفَ في وَجه شَعْب مُصَمِّم ولديه مصادر كافية لأن يحط من قَدْرِ ذلك النظام الراديكالي القديم. وإن استطعت أن تفهم تطور الصين، برغم عقباتها، عَرَفت كيف استطاعت أن تهز العالم عندما يسقط ما تبقى من الحواجز التي لا يستهان بها.

ولعــلّ المثــال الأبرز عن إعاقة الشــيوعية للنمو يتجلى فــي موضوع الملكية الخاصة. فمنذ أوائل سنوات الشيوعية كانت الحكومة الصينية، بشكل أو بآخر، تملــك جميع الأرض في الصــين. فقد أنْهَت الثورة التي قادها ماو تســي تونج Mao Zedong سنة 1949م نظام ملكية خاصة يعود إلى قرون خَلَت.

لقد كان ماو شــيوعياً ناشطاً منذ عشرينيات القرن العشرين، وطالما اعتقد أن على ثورة الصين الاشتراكية أن تنطلق من صفوف الفلاحين وليس من عمال المــدن، خِلافاً لمــا تقوله النظرية الماركســية. وتَعَرَّضَ جيش مــاو من الفلاحين لِصِعابٍ كثيرة في ثلاثينيات القرن العشــرين وأربعينياته، أيام الاحتلال الياباني والحرب الأهلية الصينية، كان منها مســيرة 7.700 ميــلاً. وقد كادت قواتُه أن تُمحى، وبقيت حتى النهاية. وأُسِّسَــت الجمهورية الشــعبية في تشــرين الأول/ أكتوبر 1949م، يوم كان عدد أعضاء الحزب الشيوعي الصيني 4.5 مليوناً، تسعة أعشارهم من الفلاحين. وتميزت السنوات الأولى بإعادة بناء كبيرة للصين، فَجاءَت رفاهيةُ البلاد الجديدة واستقرارُها على خلاف صِعابِ العقود السابقة.

وســرعان ما شَنَّتّ القيادةُ الصينيَّة حَمْلَةً ضِدَّ «أعداء الدولة» وبدأت عملية إصلاح للأراضي سنة 1950م بقانون الإصلاح الزراعي.

قضى القانــون، بضربة واحدة جريئة، على حقوق الأفراد في ملكية الأرض فــي الصين. وصادر القانون أمــلاك إقطاعيِّي الصين، بادئ ذي بدء، الذين كان معظمهم يملك مساحات هائلة من الأرض، ومنح مزارعيهم المستأجرين السابقين حــق اســتخدام قطع من الأرض. ونجح الإصلاح في تحقيــق طموح طالما حمله الشــيوعيون بوضع الأرض بين أيدي الفلاحين الذيــن يعملون فيها. وقد جاءت ممارســة الشــيوعيين على خلاف ذلك أيضاً. فقد أخذ الشيوعيون الأرض من الإقطاعيين الذين يكرهونهم، غير أنهم أخذوا الأرض أيضاً من ملايين الفلاحين المزارعين الذين يملكون قطعاً صغيرة من الأرض. وقبل أن تحول كل الأرض قسراً

إلى الدولة الشيوعية كان 60 بالمئة من سكان الصين الريفيين، وكان أكثرهم من الأسر الفقيرة، يملكون أرضاً، مهما صغرت مساحتها.

وكان ثمة قواسم مشتركة بين الإصلاح الشيوعي الراديكالي الأول والإصلاحات التي طبقت في الفترة نفسها لتعزيز الرأسمالية في فَلَك النُّفوذ الأمريكي خارج الصين. فقد جعل الجنرال دُوجلاس ماك آرثر Douglas MacArthur في مقدمة أهدافه، عند احتلالِ أمريكا لليابان بعدَ الحرب العالمية الثانية، إصلاحَ النظام الإقطاعي في اليابان والسيطرة على الأرض وإعادة توزيع المزارع على الذين يعملون فيها. بينما نجدُ ما فَعَلَه في الصين، كان على خلاف ذلك، فقد فرض ماك آرثر على المستأجرين شراء قطع الأرض التي يعملون فيها، برغم ما عَرَضَتْه الحكومة من شروط يسيرة جداً، غير أنها حقَّقت أيضاً معجزات؛ فالأرض التي كانت تُزرع قسراً أثناء الحرب لتلبية طلبات العسكريين اليابانيين ضاعفت الإنتاج على أيدي الفلاحين. ولم يُؤدالإصلاح في اليابان، على خلاف الإصلاح الصيني، إلى الانتقام العنيف الذي انْتَقَمَهُ المزارعون الصينيون من سادتهم السابقين. بينما أعطَت إصلاحات ماك آرثر، المحتلين الأمريكيين والغرب الرأسمالي شكراً من الأنصار اليابانيين فاستمر تقدمهم الاقتصادي استمراراً رائعاً، ففقد الصينيون قوَّتَهُم الدافعة بإدخال مزيد من الإصلاحات الراديكالية.

التعاوُنِيّات ومَساوئها

وتحولت الصين في منتصف خمسينسيات القرن العشرين، من ملكية الأفراد للأرض إلى نموذج التعاونيات السوفيتي الستاليني. وقد فُرِض البرنامج التعاوني في الاتحاد السوفيتي بالعُنف الذي مَيَّز ستالين، الذي جعل القتل والسجن جزءاً من سياسة الاتحاد السوفيتي الزراعية. فأعدم ستالين أُلوفاً من الكولاكيين (المزارعين الأغنياء في روسية)، قام بذلك الفلاحون السابقون الذين هم مثل المزارعين المستأجرين السابقين في الصين، الذين منحوا قطع أرض في موجة

إصلاح ما قبل الشيوعية. ونفى ستالين ملايين منهم إلى سيبريا. وقد خطط الشيوعيون الصينيون لاتباع النموذج الستاليني في التعاونيات منذ بداية الثورة، وكان هدف الحزب الإصلاحي الأول هو الخطوة الأولى لتحقيق ذلك.

وجاء هذا التحول الراديكالي المُتَشَدِّد سنة 1956م. فأُجبر الفلاحون في البداية على مساعدة بعضهم بعضاً، كل في أرض الآخر. وكانت الأراضي تَشْمَلُ ما يتبعها من أملاك وحيوانات ومعدات زراعية جماعية. فضربت القرارات الجديدة الأُسْرَة، وهي أساس المؤسسة الاجتماعية في الصين. إذ أدَّى أكثرُها تَطَرُّفاً إلى إخراج الناس من بيوتهم إلى مهاجع كبيرة كفيلة بتشتيت شمل الأسرة. وصار العمل في الأرض مُشْتَرَكاً بين جماعات تَتَكَوَّن من مئة عائلة.

وكان من دوافع التغيير دافعٌ عملي. فالأراضي المزروعة لم يعد يُمكن تقسيمها إلى قِطَع صغيرة من الأرض، يزرع كل منها خليطاً مختلفاً من المحاصيل. ورأت الحكومةً أن زراعة قطع الأرض الموحدة الكبيرة أجْدى نَفْعاً. ويمكن توظيف المعدات الزراعية الحديثة فيها إن تَوَفَّرَت. ويُمكن، بذلك، تحرير العمال لبناء السدود وأنظمة الري.

أما صينُ ماو تسي تونج، فقد كان يهمُّها أن يُعيد النظامُ الجماعي الجديد تشكيل عدد كبير من الفلاحين في الصين. فقد كان في تعاليم ماو الرئيسة ما ينصُّ على أن الحاجة تدعو إلى قولبة الفلاحين والعمال الصينيين في قوة عَمَل تَسْهُل تَعْبئتها، وليس يعنى ذلك تحريكها جُغرافياً وإنما تعبئتها في حملات إيديولوجية، وفي سياسات الحزب الاقتصادية والسياسية المُتَغَيِّرَة، وأبقي العمال الريفيون في الصين يعملون في الأرض حيث يُمكن أن يقوموا بدور «جيش احتياط» يُدعى إلى العمل عندما يحتاج إليه الحزب في مشروعات التصنيع. وهكذا وُظّف الريف وأُعيد توظيفه في حملة بعد أخرى، بدفع من قوة الدولة، وضغوط كوميونية اشتراكية الشعب، وتمييز إيديولوجي، وعواقب رهيبة تنزل بالذين لا يَنْصاعون.

وهكـذا كانت المرحلة الجماعية مرحلة ولادة سـكان ريـف الصين. فعندما سيطر الشيوعيون على جميع الأملاك الخاصّة، بدأوا بتصفية الأعمال التجارية الصغيـرة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، والتي تُشَـكِّل تجـارة البلاد اليومية. ففقدت الأُسر التي تملك متاجر صغيرة متاجرها، إذْ تَوَلَّت الدولة دَوْرَ أصحاب الدَّكاكين، فأُجْبِرت الأُسَـر علـى العمل في الأرض كلَّ الوَقْـت وإن كانوا قد انقطعوا عنها انقطاعاً كاملاً. وأصدرت الحكومة مرسـوماً سنة 1956م منع المصانع والمناجم وعمّال البناء وخطوطَ النقل التي تملكها الدولة من توظيف أي شخص يعمل في مزرعة. واستَنْفَرَت أجهزة أمن الصين الداخلي الأشخاص الذين يهجرون الريف إلى المدينة.

وزادَ الأمرَ سوءاً أن أسَّسَت البلادُ نظام هوكو hukou؛ وهو مجموعة قوانين جعلت الدولة سـيداً إقطاعياً على فلاحيها. فبينما كانـت الأهداف الصناعية الضخمة، بين سنتي 1959م و 1960م التي دفعها الحزب تُسْهِمُ في قفزة كبرى إلى الأمام وتسمح للفلاحين بمُغادرة الريف والانضمام إلى شركات مدينية، كانت الصين تشـهد، خلال هذه النافذة القصيرة مـا كان مُتَوَقَّعاً؛ إذ اندفع الفلاحون إلى المدن مثل معظم فلاحي العالم بعدَ الحرب العالمية الثانية. فَجُنِّد 19 مليوناً للذهـاب إلى المدن، فأتـى 50 مليوناً غير أنَّ الصين لـم تزدهر وإنما تضورت جوعاً. وتَدَفَّقَ عَشـرات ملايين الفلاحين إلى المدن أثناء المجاعة. وجاء ردُّ الفعل سـريعاً، فأقدم الحزب، في تحرك لحماية عمالّـه الريفيين، على ترحيل معظم المهاجرين الريفيين وإعادتهم إلى الريف، حيث كانت الحكومة تريد إبقاءهم.

وكان الشيوعيون مع حلول سنة 1960م قد أبعدوا معظم أهل الريف، ليس عن العالم، وإنما عن مدن الصين نفسها. ونشأت كِيْت زياو زهو Kate Xiao Zhou، وهي صينيَّة، وُلِدَت سنة 1956م، وقوطعت طفولتها المدينية المبكرة أثناء ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، أيام الثورة الثقافية وذروة قيود هوكوhukou، عندما سُمي والدها، الذي كان أستاذاً للغة الإنجليزية في الجامعة، «بورجوازي مُثقف»

و»عدو للشـــعب». وكان هذا اللقب يعني خراب أُسَرٍ بكاملها. وحَملَ جميعُ أفراد الأُسْـــرَة وطأة وَصْمَة العار فصار الأطفال منبوذين في المدرســـة إن اســـتطاعوا الذهاب إليها أصلاً، وحُـــرِم الأقرباء من فرص العمل. وتَغَيَّرَت حياة زهاو تغيراً ســـريعاً وشَرِساً. فقد سُـــجن أبوها في مدرســـته، وعلقت ملصقاتٌ في الحرم الجامعـــي اتهمَته بتصرفات جنســـية قـــذرة. وهاجم الحـــرسُ الأحمر بعد ذلك مُباشرة والدة زهاو، وهم الجنود الشباب للثورة الثقافية، فعدّوا جمالها وحيويتها الجنســـية فوق الحد المقبول. فَقَصَّ الحرس شَـــعْرَها، ثم أجبروها على المســـير إلى حشـــدٍ أُهينت فيه عَلَناً. وفُتِّش بيت أُمِّها (إذ كان أبواها مطلقين) وأُخرجت المجوهرات والخزف الثمين من مخبئه تحت الأرض. وأخيراً نُفِيَت زهاو وشقيقها ووالدها إلى ريفٍ في مقاطعة هوبي Hubei كي «يُثَقِّفَهُم المزارعون».

وفَصَّلت زهاو في كتابها «كيف غير الفلاحون الصين؟»–How the Farmers Changed China الذي نَشَـــرَته سنة 1996م، عن تجربتها مع المزارعين. فذكرت أولاً قمع السياســـات الرســـمية الصينية للســـكان الريفيين، وكيف وجد المزارعون ســـبلاً لفرض التغيير بالقوة. وركزت فـــي وصفها لرد فعلها تجاه بيتها الريفي الجديد على الفوارق الكبيرة التي كانت موجودة إذ ذاك بين أسلوبي الحياة فـــي الريف وفي المدينة. «كانت القرية، لنا، عالمـــاً غريباً تماماً. ليس فيها كهرباء، ولا مياه جارية، ولا مراحيض. كل ما كُنا نســـلم بوجوده في المدينة لم يكن موجوداً فـــي الريف». إن الخـــط الفاصل الذي اجتازته زهاو فصلها عن عالمها الســـابق بِقَسْوَةٍ لاتقلُّ عن تلك التي مارَسَتْها أنظمة التفرقة العنصرية في جنوب إفريقية، وقوانـــين الأمريكي جيم كراو Jim Crow، ونظام جتوات أوروبا ضد قطاعات كاملة من السكان.

وُضِعَ نظام هوكو hukoub، كما وصفته زهاو، ليحرم الهجرة من الريف إلى المدينة. كانت البطاقة العائلية تقوم مقام جوازات سفر داخلية. «كانت كلُّ بطاقة عائلية تُسَـــجِّلُ أَصْلَ العائلـــة، وانتماءها الطبقي، وهويتها الشـــخصية، وتواريخ

الــولادة، وأعمال جميع أفرادها». فكان الذين يحملون هويات ريفية ويســافرون إلــى المدينة دون الموافقــات اللازمة، التي يصعب الحصــول عليها، يوقفون، ثم يُعادون إلى مزارعهم. كما كانت البطاقة العائلية مطلوبة للحصول على الغذاء من مخازن الحكومة. وكان الذين يذهبون إلى مخازن خارج منطقتهم يُرَدُّونَ خائبين. وتقول زهاو إن النتيجة كانت أن حكمت الدولة على أطفال المزارعين بالبقاء في المزرعة. وكان العاملون في الجيش وذوو المناصب السياســية، أو الأعمال المؤقتة في مدينة مجاورة لايَعْدَمون سبيلاً للخروج.

لم يكن الفلاحون يحصلون على غذائهم من الدولة فحسب، وإنما كان عليهم أن يحملــوا الغذاء إلى الدولة أيضاً. إذ يُفرض علــى التعاونيات تحقيق أهداف الإنتاج، ثم يســلم المحصــول إلى الدولة لتلبية حاجات المُــدن. وبذلك، فقد كان المزارعــون الذين يزرعون غذاء البلاد هــم أول الجائعين. وقد حصدت مجاعة ســنة 1957م أرواح عشرات الملايين من سكان الريف بينما نجا سكان المدن، لم يَمْسَسْهُم سُوء.

وكان التفســير المألوف لانخفاض إنتاج الشــيوعية إلقــاء اللوم على غياب حوافز المزارعين. ويشــكو المزارعون في المــزارع التعاونية الصينية من ضمانات الدولة التي لا تمدهم بغذاء أكثر ولا أقل مما تسمح به كتب مخصصاتهم، لذلك لا تجدهم مضطرين إلى أن يُجهدوا أنفســهم في العمل أكثر من حدوده الدنيا، وكيف تتوقع ممن يَرَون ثمرة عملهم يجنيها آخرون أن يرهقوا أنفسَهُم؟!. غير أن هذا التحليل يهمل حرمان الفلاحين القَسْــري المُجبرين على البقاء في الأرض. فقد حُوِّلوا إلى عبيد لمُدن الصين.

كان ســكان ريف الصين، وما زالوا، يعانون من تمييز عميق راسخ من سكان المــدن. فقبل وصول الشــيوعيين إلى الســلطة وبعدها، كانــت مدن الصين هي التــي يرغب الناسُ العيشَ فيها أكثر من ســواها. فالمدن فيها الغِنى، والمدارس، والثقافة، والحِنْكَة السياسية. كانت المدن تقدم فرصة للتحرك الاجتماعي. فكان

سكان ريف الصين، مثل سكان كل ريف، فقراء، يفتِكُ بِهِم الجَهْلَ، وتُفْسِد بريقَهُم الأنماط السلبية من سكان المدن الذين يَتَّصفون بالكسل، والغباء، ويعوزهم الاستقامة. وبرغم أن الثورة قد أعطت سكان الصين الريفيين كرامة جديدة، ولما كان المزارعون الفلاحون هم الذين غذوا الحزب الشيوعي في قتاله الطويل، وكان كثير من القادة الشيوعيين من الريف، فقد وجد الشيوعيون سُبُلاً لإخضاع الريف واستعباده.

كَيْفَ أَنْقَذَ الصينَ ثمانية عشر مُزارِعاً؟

إن الجوع الذي اجتاح مساحات واسعة من ريف الصين خلال ستينيات القرن العشرين وسبعينياته قد حرّك جهوداً سريةً لجماعة من المزارعين جعلت الإصلاحيين أسطورة بعد ذلك في الفترة التي جاءت بعد عهد ماو. فأتت الجماعة من قرية مهملة اسمها زياوجانج Xiaogang في مقاطعة أنْهوي Anhui الفقيرة. كانت الأُسَر في زياوجانج في ستينيات القرن العشرين تعيش فقراً مدقعاً. وكان المزارعون، الذين لا يتجاوز دخلهم عشرين يوان في السنة، من أكثر الناس فقراً على وجه الأرض. (يعادل سعر صرف 20 يوان اليوم 2.50 دولاراً) فأرسَلَت أُسَرٌ كثيرةٌ أبناءَها يَتَسَوَّلون.

إن مُعْظَمَ من في الصين يعرف الرواية الرسمية لقصة ارتقاء هؤلاء، وهي كما يأتي: اتفق ثمانية عشر مزارع يَتَطَلَّعون إلى سُبُل أفضل لإطعام أُسَرِهِم على تقسيم الأرض التي يزرعونها مجتمعين، وخَصُّوا كلَّ أُسْرَة بقِطْعَة من الأرض. وكان التعاونيون في ذلك الوقت مُجبرين على دفع «ضريبة حبوب» حصّةً تدخل قنوات توزيع الحكومة. فوافق المزارعون على أن يستمروا في دفع ضريبة الحبوب، غير أنهم يستطيعون، عند تَسْديدِهِم التزاماتهم، أن يبيعوا أو يُقايضوا أي فائض يمكنُهُم انتزاعه من الأرض، ويستطيعون عندئذ الاحتفاظ بما يعود عليهم منه. وكان ذلك الترتيب السري مُخالفاً للقوانين، وكان الفلاحون يعرفون أن ميثاقهم

سيودي بهم إلى السجن، أو ربما إلى الموت. وقّع الرجالُ الثمانية عشر الميثاقَ بشجاعة ببصماتهم في كانون الأول/ديسمبر 1978. ونَصَّ الميثاق على أن يرعى بقية الموقعين على الميثاق أُسْرَةَ من يوقَف منهم، إن أُوقِفَ أَحَدُ مُوَقِّعي الميثاق أو عوقب.

وجاءت النتائج فورية، فَحَقَّقَت خلال أشهر ما لم تُحَقِّقه الإيديولوجية والتخطيط المركزي في سنين. وارتفعت محاصيل الأرض ارتفاعاً عظيماً. وتقول الرواية الرسمية إنّ الاتفاق السري ونتائجه لفتت انتباه بكين، حيث أصبح دنج زياوبنج Deng Xiaoping قائداً أعلى للصين. لم يكن مزارعو زياوجانج Xiaogang في الحقيقة، أول من أفسد النظام. فقد كان بعض الفلاحين يقدمون رشاوى صغيرة ليشتروا لأنفسهم بعض الحرية في بيع المحاصيل. وسَمَح مسؤولو المقاطعات بتلك الممارسات غير القانونية. حتى أن دنج نفسه أقر أخيراً اتفاقيات مماثلة، قائلاً: إن اتفاقية زياوجانج «نظام تعاقد مسؤول يربط الربح بالإنتاج»، وبِدَعْم دنج، سُمِحَ باتفاقيات مثلها بُنِيَت على التجربة في مقاطعات أكثر فقراً وأشد حرصاً على الخلاص. فقدم ذلك الإجراء طريقةً فعالةً وغير مكلفة لحكومة تناضل لتعبر مرحلة انتقالية صعبة ترفع فيها شعبها.

وكان معظم مزارعي أنهوي Anhui بعد مرور سنة على الميثاق، وهي مقاطعة ريفية يسكنها 50 مليون نسمة، يعملون حسب ما صار يعرف بنظام المسؤولية المنزلي Household Responsibility System. وساعد على اكتمال الأسطورة أن أبطالها كانوا مزارعين فلاحين، ولم يكونوا من مُثقفي المدينة أو مخططي الحكومة في بكين، الذين زرعوا هذه الثورة الجديدة. ورسَّخت الصين رسمياً نظام المسؤولية المنزلي سنة 1980م. وسمح النظام للعائلات زراعة المحاصيل وبيعها بقصد الربح، على أن يلتزموا بمسؤولياتهم المحددة للدولة. وبذلك انطلق اقتصاد السوق حقاً على أيدي المزارعين.

أما اليوم، فقد وجدت الوثيقة الأصلية التي وقّعها المزارعون الثمانية عشر طريقها إلى متحف الثورة الصينيةMuseum of Chinese Revolution في بكين، وتبذل وكالات الإعلام الحكومية الصينية قصارى جهدها لكي تبقى القصّة حيّة. فنشرت صحف الصين في كانون الأول/ديسمبر 2003 مقالات في الذكرى السنوية الخامسة والعشرين للاجتماعات السرية. قابَلَت أَحَد مُوَقِّعي الوثيقة، يان هونج تشانج Yan Hong Chang. ونسبت إليه قولَه إن الاتفاقية كانت «تَصَرُّفاً رأسمالياً تحدَّى يومئذ الملكيةَ العامّة الاشتراكية». وأشار التقرير إلى الرأي السائد القائل إن المزارعين كانوا يَتَحَدّون ماو Mao برفضهم الانصياع لنظام الزراعة التعاونية. وقال: إن المزارعين كانوا يعملون بجد أكبر التزاماً «بأفكار ماو في الإخلاص في خدمة الشعب». وتقول وكالة أنباء الصين إن كل أُسْرَة في زياوجانج تملك جراراً زراعياً وجهاز تلفزيون، وبعضهم يملك سيارات وبيوتاً من دورين فيها غُرف للمعيشة. ويقول يان هونج تشانج Yan Hong Chang: «لقد بنينا دورات مياه عامّة يتدفق الماء فيها، وغُرف مطالعة، وبرج ماء، وساحة ثقافية في قريتنا. وأصبح دخل الفرد (سنة 2003م) يزيد على ألفين وستمئة يوان (313 دولاراً)». واتجه مزارعو المنطقة إلى التنوع في زراعة الغابات وتربية الماشية، وعدم الاكتفاء بالحبوب.

ويشك الأكاديميون خارج الصين إن كان نظام المسؤولية المنزلي يدين بوجوده إلى تجربة زياوجانج أم إن المزارعين في جميع المناطق أقبلوا راغبين في تطبيقه، كما يزعم مؤرخو الصين الرسميون. ويشير بعض العلماء إلى أن نهاية المزارع التعاونية قوبلت بمعارضة أعظم مما تسمح به الروايات الرسمية. وربما ما زالت صحافة الصين الرسمية، نتيجة لذلك، تروّج قصّة الاتفاقية السرية، ومناقب المزارعين المعنيين بها. ومهما يكن الأمر، فإن تفاصيل أصول الإصلاح العملية أقل أهمية الآن من الصناعة والإقبال الذي فَجَّرَتْه الإصلاحات الريفية.

وقَلَبَت الإصلاحات الاقتصادية التي انبثقت من فساد الريف الأمورَ رأساً على عَقِب، كانت نتيجتها الموجة الأولى من ثروة الصين الجديدة التي وصلت إلى الريفيين أنفسهم. ووصلت الرفاهية إلى المناطق التي كانت من أفقر مناطق الصين، ولم يكن ذلك صدفة أو ضربة حظ، وإنما لم يَكُن للناس هناك ما يفقدونه، وكانت لديهم دوافع المجازفة التي يَجُرُّهُم إليها الفقر المُدقع والحرمان. وتسترجع كيت زياو زهاو Kate Xiao Zhou قائلة: إن مزارعي الصين عندما شقوا طريقهم لأول مرة إلى المدن، مخالفين القانون، لبيع المحصول الذي جَنوه حسب نظام المسؤولية المنزلي، فصعق سكان المدن بالمال الذي تَدَفّق بين أيدي الفلاحين. كان المزارعون في البداية موضوع نكات لا تُحْصى. ثم أصبحوا مَوْضِعَ حَسَد. ثم أيقظت مشروعاتُ المزارعين أهلَ المدن على إمكانات السوق الحرّة.

وما إن بدأ المزارعون يكسبون مالاً بجهدهم حتى بدؤوا يبحثون عن طرق لتوظيف مالهم. إن كثيراً من المشروعات التي تتنافس على البقاء في الصين اليوم نَمَت من مُدَّخَراتٍ جُمِعَت من مزارعين جاؤوا من مناطق نائِيَةٍ مُنعَزِلة يبحثون عن طرق لاستثمار المال الذي هبط عليهم، في مشروعات تجارية أكثر طموحاً. وكان بينهم تعاونيات وتجمعات لا تملكها الحكومة المركزية، وإنما يملكها أعضاء في جماعات محلية. أو تملكها استثمارات خاصة للحكومات المحلية. هذه «المشروعات القروية والبلدية» تملأ المنطقة الرمادية بين القطاعين العام والخاص، وتُشَكِّلُ الآن ثُلُثَ الاقتصاد. إن معظم هذه الشركات- التي صار عدد المتفوقة منها رقماً مذهلاً بَلَغَ 120 مليوناً - كانت تُمَوَّل أصلاً من موارد يجمعها المزارعون، أو بلديات تستعمل صناديق مواطنيها. إنها شركات صغيرة مهيمنة، في كل منها أقل من خمسة موظفين، غير أن مشروعات بعض القرى والبلديات ازدهرت وأصبحت الآن من أكثر شركات الصين منافسةً.

وابتكر المزارعون بنىً بارعة قلما تُفرق بين مصالح الحكومة والمستثمرين، فجعل ذلك المشهد التجاري في الصين يزيغ البصر. فقد صارت الصين بعد

سـنوات الإصلاح خليطـاً لاحدود له من الأعمال التجاريـة الهجينة التي تجمع مصالح الجهات الحكومية المالية من مختلف المسـتويات مع مصالح المسـؤولين (الذين قد يكونون مستثمرين أو يعتمدون على المكاسب المشتركة)، وأهل المدن في دور المساهمين، و أفراداً مستثمرين آخرين. وتدمج ملايين الشركات القطاعات بطرق شـائكة ومعقّدة تكاد تكون مسـتحيلة. وتعد هذه البنى المشـتركة شديدة الضبابية عائقاً أمام النمو في المسـتقبل، وقد يكون خلاف ذلك صحيحاً أيضاً. إذ تكون إحدى طرق بدء فهم أثر الصين على الاقتصاد العالمي الذي سيكتشـف خـلال العقود القليلة القادمة وهي دراسـة ما وصلت إليـه الصين دون قوانين وحقوق الملكية التي طالما عدّت من أهم اللبنات في بناء التنمية الاقتصادية. وكل شيء بدأ ببيع فائض إنتاج الخضراوات.

الشيوعيةُ وجُنودُ رَأسِ المالِ المَشْحونُون

إنَّ الإخضاع زمناً طويلاً ثم تَحَرُّر مُزارعي الصين قد فَجَّرَ اقتصادَ السـوق في الصين، غير أنَّه حَرَّضَ أيضاً الفيضان الحالي من الهجرة الذي حَمَلَ السيد لي والسـيدة لي إلى سوق التحف دونجتاي Dongtai في شنغهاي. وربما كان مجموع عدد المهاجرين الآن ليس إلا الموجة الأولى من مهاجرين آخرين سـيأتون قريباً؛ وإليكم السـبب. فبرغم صعوبة تَوافُر إحصاءات موثوق بها لسكان الصين نَجِدُ الاتجاهَ الواسـع يتضح في كل إحصاء للسكان. وتراجع التَحَضُّر في الصين عن التَحَضُّر في بقية العالم في خمسين سنة مضت، باستثناء بضع سنين أخيرة. لقد شـهد العالم نمواً حَضَرِيّاً غير مسـبوق خارج الصـين، وفي العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، كان معظمه هجرة من الريف. وكان حوالي 30 بالمئة من سكان العالم في سنة 1950م يعيشون في المدن. ويقلُّ هذا الرقم ست نقاط مئوية عن واقع الصين اليوم، وكانت نسبة سكان العالم الذين يعدون المُدُنَ مَوْطِناً لهم تبلغ 47 بالمئة سـنة 2000م. وتعكس الأرقام تمركزاً عالياً لسكان المدن في الدول المتقدمة، حيث يعيش ثلاثة أرباع سكانها في المدن.

غيـــر أن التحول إلى حياة المدن مازال مُنْخَفِضاً في الصين إذا قورن بالدول النامية- حيث يعيش 40 بالمئة من الســـكان في المدن- التي لاتملك شيئاً من قوة الصين الصناعية. وقد ذكرنا فيما ســـلف أن الصين تضم خُمُسَ ســـكان العالم، وأن رُبـــعَ مزارعي العالم صينيـــون. ويتَّضح بذلك أن الاندفاع الصيني الذي نراه نحو حياة المدن يعوض سراعاً ذلك الوقت الضائع، وتتوقع الأمم المتحدة أن يجعل تدفُّقُ سكان الريف الهائل إلى المدن سنة 2010م نسبة التَّمَدُّن (التحول إلى حياة المدن) تصل إلى 45 بالمئة، وتبلغ النســـبة ســـنة 2030م ستين بالمئة. وبهذا نرى ســـبيلاً آخر لاندفاع الصين الســـريع في الاقتصاد العالمي، فننظر إليه رداً على إقصاء الشيوعيين معظم ســـكان الصين عن عالم التجارة. وإن حملات التنظيم الجماعي الشـــيوعية في الريف وفي المدينة، إذا نظر إليها في ضوء تنمية طويلة الأمد فـــي الصين، قد أدت إلى ظهور قوة عمل مِطْواعة ســـهلة الانقياد قوامها مئات ملايين البَشَر.

نشـــأ البـــروفســـور برازِنجِيت دوارا Prasenjit Duara – أستاذ التاريخ واللغات الآسيوية الشرقية والحضارات في جامعة شيكاغو، ورئيس دائرة التاريخ في الكلية – في الهند في أَوْج اشـــتراكية الهند. وكان شاباً في سبعينيات القرن العشـــرين، فجذبته الصـــين بما لها من صورة بلد ينعم بمســـاواة راديكالية. أما اليوم، فيركز دورا بحثه على تلاعب الصين في السجل التاريخي للبلاد بما يخدم أغـــراض الأجيال المختلفة من القادة، والإصلاحيـــين، والغزاة. ويرى دوارا عمق الســـخرية في بروز الرأســـمالية في الصين بعد سنة 1978م. أما عن الصينيين الذين عرقوا وجاهدوا أنفسهم في الماركسية ونظرية ماوتسي تونج حتى أدخلوها في عظامهم، فالســـخرية أكبر من منعطف تاريخي فحســـب، لقد قلبت فِكْرَهُم رأســـاً على عَقِب. وتقول النظرية الماركســـية إن الرأسمالية تأخذ شكلها عندما يعصـــر أصحاب رأس المال الأوائل المزارعين الفلاحين، الذين يجوعون كي تخرج ثروة الأرض إلى مشروع تجاري برأس مال مُكثّف. أما الصين، فقد كان المزارعون

الفلاحون فيها هم الذين عصروا الدولة الشيوعية ليبدأوا أعمالهم الخاصة. وإن من السخرية أيضاً أن يكون إصلاحيو ماو هم الذين وضعوا اللبنات الأولى للرأسمالية الصينية. يقول دوارا: «إن الشيوعيين قد جعلوا قوة العمل مطواعة، ونظموا العمل ليصبح كياناً يمكن إدارته وتعبئته دائما». واستَنْزفت المؤسسات الاجتماعية التي أوجدها.

لقد غَدَت قوة العمل هذه مُغْرِيَة حتى لايستطيع أن يقاومها صناعيو العالم. وإذ تبحث الشركات الأمريكية والأوروبية عن مواقع تنقل مصانعها إليها، أو تحول الإنتاج إلى أطراف ثالثة، فإن الصين تعد المكان الذي يمكن إبقاء تكاليف الإدارة واليد العاملة فيها في مستواها الأدنى.

قد تكون المفارقة التاريخية القادمة أن نرى تلك الشركات الأوروبية والأمريكية ذاتها تُعَلم الشركات الصينية كيف تستخدم القوى العاملة المِطواعة تلك لتكسب ميزة المنافسة ضدهم في السوق العالمية.